

الفصل الثالث جمع الأصول والمراجع

تمهيد - كتب المراجع (البليوغرافيات) - الوثائق - البحث عن الوثائق - أمثلة : البحث عن الوثائق في دار المحفوظات المصرية - في أرشيف فلورنسا التاريخي - في أرشيف بيرزا - في كنيسة فرسان سان استفانو في بيرزا - في أرشيف البنقية - في أرشيف فينا التاريخي - في أرشيف وزارة الخارجية في باريس - في المكتبة الوطنية في باريس - في أرشيف لندن التاريخي - كتابة المذكرات - الرسوم والصور - آثار الإنسان ومخلفاته .

الخطوة التالية فيما نحن بصددده هي أن يتوفّر الباحث على جمع المادة التاريخية للموضوع الذي وقع عليه اختياره ، من المراجع العامة والخاصة ، أو من المصادر والأصول المطبوعة والمخطوطة ، مع حصر الآثار والمخلفات التي تتعلق به .

والمراجع العامة والخاصة تُفيد في إعطاء الباحث فكرة عامة عن العصر الذي يكون موضوع البحث جزءاً منه ، كما تُقدم له بعض المراجع التي تعينه . ومن الضروري أن يبدأ الباحث في هذه المرحلة بالإفادة بما كتبه السابقون ، والاستعانة بالمراجع التي اعتمدوا عليها . وعدم العناية بذلك يُعد مضيعةً للوقت وإخلالاً بشروط البحث العلمي . وينبغي على كل جيل من المؤرخين أن يعرف ما كتبه السابقون ، والمراجع التي أفادوا بها ، وعليه أن يبدأ حيث انتهوا ، وأن يعمل مؤرخ اليوم لكي يمهد لمؤرخ الغد ، وهكذا على التوالي .

وعلى الباحث أن يتتبع المسألة أو الفكرة الواحدة في بعض الكتب الجيدة والرديئة على السواء ، مع التعرف على الكتب التي اعتمد عليها أولئك وهؤلاء ، لكي يدرك كيف نَمَت هذه الفكرة وتطورت ، وكيف عاجلها الكتاب المختلفون . وهذه القراءة المقارنة تساعد الباحث على معرفة أوجه القوة وأوجه الضعف ، وتعينه على الوصول إلى تحديد المسائل الجديرة بالدرس والإيضاح .

فالباحث الذي يرغب في الكتابة عن ناحية من تاريخ مصر في القرن الثامن عشر - مثلاً - ينبغي عليه أن يدرس أولاً بعض المراجع العامة عن تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عصر دراسته ، لكي يفهم أساس تطور هذه البلاد عبر

التاريخ . ثم يتجه إلى المراجع التي تبحث في تاريخ مصر في أثناء القرن الثامن عشر ، ثم يطالع ما كتبه الرحالون الذين زاروا مصر ، ويدرس ما دونوه عنها ، قبل التغلغل في الأصول والوثائق التاريخية في مصر والخارج ، وذلك لكي يزداد بالتدريج اقتراباً من الناحية التي يرغب في الكتابة عنها .

وكيف يمكن الباحث أن يعرف كلَّ أو جلَّ المراجع العامة والخاصة والأصول المطبوعة - أولاً - عن موضوع دراسته ؟ الإحاطة بذلك ليست أمراً سهلاً . ويمكن الباحث في أول الأمر أن يستعين بالاطلاع على المقالات الواردة في دوائر المعارف فيعرف بعض المراجع والأصول المطبوعة التي تخصه .

ثم عليه أن يرجع بعدئذ إلى كتب المراجع (البليوغرافيات) التي تناول موضوع دراسته . ولقد أصدر الغربيون أنواعاً مختلفة من كتب المراجع ، فمنها البليوغرافيات العامة . ومنها الخاصة بقطر أو عصر أو بشخصية معينة . وبعضها يكتبي يذكر المراجع والمصادر وأماكن وسنن طبعها وعدد صفحاتها ، بينما يعطى بعضها الآخر مذكرات وصفية موجزة عن المراجع . والأصول المطبوعة * . ولكن

* بعض أمثلة عن كتب البليوغرافيات :

International Bibliography of Historical Sciences edited by the International Committee of Historical Sciences. Washington, 1926 .

ويصدر هذا المجلد مرة كل سنة ابتداء من سنة ١٩٢٦ ويشترط في وضعه طائفة من العلماء والباحثين . وله لجان فرعية في أقطار أوروبا وأمريكا . وهو ينشر قوائم مختارة من المراجع والأصول التاريخية التي صدرت في عام مكثفياً بذكر مكان الطبع وتاريخه وعدد صفحات الكتاب . والمؤلفات التي يوردها تشمل جميع نواحي التاريخ ، فتتناول طرق البحث في علم التاريخ ، والعلوم المساعدة ، ودور الأرشيف ، والمؤلفات العامة عن التاريخ الدستوري ، والتاريخ الاقتصادي ، وعن تاريخ الحضارة . وعصر ما قبل التاريخ ، وشعوب الشرق القديم ، وتاريخ اليونان والرومان ، وتاريخ الكنيسة القديم ، وتاريخ بزنطة ، وتاريخ المصور الوسطى في الغرب ، ونواح مختلفة من التاريخ الحديث ، مثل التاريخ الديني والثقاق والاجتماعي ، وتاريخ العلاقات السياسية ، وتاريخ آسيا وأفريقيا وأمريكا . . .

Bibliographie Critique des Principaux Travaux parus sur l'Histoire de 1600

a 1914 en 1932 et 1933. Paris, 1935.

نشرت هذا المجلد جمعية التاريخ الحديث في باريس . وهو يعطى قوائم عن نواح من التاريخ العام والخاص مع وصف موجز لما تناوله المؤلفات الواردة من الموضوعات .

ومن كتب البليوغرافيات عن قطر معن نجد عن سورية مثلاً :

Rohricht, R. : Bibliotheca Geographica Palaestinae. Berlin, 1890.

Mazou, P. : Bibliographie Française de la Syrie. Marseille, 1919.

=

هذا لا يكفي ، إذ أن كتب المراجع لا تكون وافية في كل الأحوال ، وهي في الغالب لا تذكر شيئاً عن المقالات المنشورة في المجلات التاريخية ، وهي كثيرة ومتنوعة . فن الضرورى إذاً مراجعة فهرس هذه المجلات للإلمام بما يكون قد كتب فيها عن موضوع الدراسة المعين . وكذلك ينبغي على الباحث أن يُراجع فهرس دور الكتب المطبوعة وغير المطبوعة التي تتاح له فرصة التردد عليها في بلده أو في الخارج . وعليه أن يجمع من كل هذه النواحي أسماء المراجع والأصول التي تعنيه ، لكي يدرس ما يجده منها كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ويحسن أن يستعين بعمل فهرس أبجدي لمراجعته وأصوله التاريخية على جزازات من الكرتون (الفيش) ، أو في صفحات من الورق ، ويدون بها ملاحظاته .

= ونجد عن مصر :

Hilmy, 'Ib. Prince : The Literature of Egypt and the Sudan, 2 vols. London, 1886-1888.

Maurier, R. : Bibliographie Economique Juridique et Sociale de l'Egypte Moderne (1798-1916). Le Caire, 1918.

وفي الشخصيات نجد عن دانتى أليجييرى مثلاً :

Cosmo, U. : Guida : Dante. Torino, 1947.

ويعرض بإيجاز دراحى من حياة دانتى ومؤلفاته ، ويأتى في كل ناحية بقائمة من المصادر والمراجع التي تحتص بها .

Köch, Th. W. : Catalogue of the Dante Collection presented by W. Fiske to Cornell University, 2 vols. New York, 1898-1900.

Fowler, M. : Additions (to Cornell's Dante Collection, 1898-1920). Ithaca, N.Y., 1921.

يحتوى الفهرس الأول على ٦٠٦ صفحة والثانى على ١٥٢ صفحة ويبلغ مجموع الكتب الدانتية التي وردت به حوالى ٨٣٧٥ بنداً وتشمل المؤلفات التي وضعها دانتى بالإيطالية واللاتينية ، وترجماتها ترجمة كاملة أو جزئية إلى اللغات الغربية والشرقية الشائعة وغير الشائعة ، ثم المؤلفات الصادرة عن دانتى ومؤلفاته ، مع وصف موجز لكل بند منها ، وذلك من أقرن الرابع عشر حتى سنة ١٩٢٠ . وبلغت محتويات هذه المكتبة النادرة في جامعة كورنيل في إيثاكا بولاية نيويورك حيناً رتبها في خريف سنة ١٩٦٢ ، حوالى أحد عشر ألف بند ! وهي أكبر مكتبة دانتية في العالم . ويقوم الآن الأستاذ ا . ل . بلجربنى بإعداد قائمه تكميلية لهذه المجموعة ، عما ورد إليها منذ ١٩٢٠ حتى ١٩٦٥ .

Toynbee, P. : Britain's Tribute to Dante in Literature and Art. London, 1921.

يحتوى على قائمه بالخطوط والمطبوعات والترجمات لمؤلفات دانتى والمؤلفات عنه ، فضلاً عن قائمة مما يتصل به من الصور واتماثيل وأعمال الحفر والمعارض ، من حوالى سنة ١٣٨٠ حتى سنة ١٩١٣ - ويبين ذلك جهود الإنجليز في خدمة التراث الدانتى .

Dante : An Excerpt from the General Catalogue of the Printed Books in the British Museum. London, 1952.

ويتجه الباحث بعدئذ إلى البحث عن الوثائق والأصول التاريخية اللازمة لدراسته ، بما تشمله من المعاهدات أو المراسلات السياسية أو التعليمات أو الأوامر أو المذكرات أو القوانين . . . والتي كانت تُحفظ عادة عند الملوك أو الأمراء أو عند بعض رجال الدين ، أو عند بعض الزعماء أو رجال السياسة أو رجال الحرب أو عند عامة الأفراد ، أو عند تجار الوثائق .

وليس من الضروري أن توجد وثائق وافية عن كل حوادث التاريخ ، إذ تنطمس آثار كثير منها وتزول دلالاته ، بتعرضها في ظروف مختلفة للتلف أو الضياع ، مثل ظروف الثورات أو الحرائق أو الرغبة في التخلص منها وإتلافها عن عمد ، حينما تكون في حوزة من لا يفهم قيمتها التاريخية ، أو من يهمله منع تداول معلوماتها بين الناس . وبذلك يضيع الكثير منها بالنسبة للتاريخ ، وكان الأفكار والحوادث التي كانت تحملها في طياتها وثناياها لم تكن في الوجود .

وعلى ذلك فكثيراً ما يجد المؤرخ فجوات في مجرى التاريخ ، لا يمكنه أن يملأها ، وستبقى حلقات كثيرة من التاريخ مجهولة إلى الأبد . وليس هناك ما يمكن أن يعوّض عن ضياع تلك الوثائق . وحيث لا توجد الوثائق ينعدم وجود التاريخ * .

والبحث عن الوثائق (heuristic) من العمليات الأساسية في كتابة التاريخ . وإن كشف كمية من الوثائق الهامة عن موضوع معين ، هو الذي يُحدد إمكان الاستمرار في بحثه أو العدول عنه إلى موضوع آخر . والباحث الذي يكتب التاريخ دون أن يحصل على مجموعة من الوثائق الأساسية الجديدة ، أو التي لم يكن قد سبق استخدامها استخداماً علمياً مكتملاً ، تنقص قيمة بحثه العلمية أو تتضاءل أو تنعدم ، مهما بذل من مجهود .

ولقد لاقى الباحثون والمؤرخون القدامى صعوبات جمّة في سبيل الوصول إلى الوثائق التاريخية . وإذا كانت الحوادث التي قصدوا الكتابة عنها قريبة نسبياً من العهد الذي عاشوا فيه ، فإنهم كانوا يرجعون إلى روايات بعض الأشخاص الذين شهدوا الحوادث ، ويقارنون بينها ، وينقدونها ، ويستخلصون منها ما يمكن الوصول

Langlois, Ch. V. et Seignobos, Ch.: Introduction aux Etudes Historiques. *

Paris, 1898.

Engl. Trans. by G.G. Berry. London, 1912 p. 17.

إليه من الحقائق التاريخية . على أن هذه الطريقة لا تكون سليمة دائماً لتعرض الروايات الشفوية للتحريف والتغيير ، وإن كان تدوين الروايات الشفوية من شأنه أن يوقف ، في الغالب ، ما يكون قد دخل عليها من التغيير عند الحد الذي سُجِّلت فيه .

فالوثائق ضرورية جداً للعهد القريب نسبياً من المؤرخ . فضلاً عن الأزمنة البعيدة عنه . وفي أغلب الأحيان تنتقل الوثائق من حوزة الأفراد إلى الأماكن العامة ، وتُحفظ في دور الأرشيف ودور الكتب وفي المتاحف والأديرة والكنائس . ولقد وُضعت الفهارس للكثير من الوثائق المحفوظة في الأماكن العامة . إلا أنها في أحوال كثيرة تكون غير وافية ، ويكتفى أغلبها بوضع أرقام مجلدات الوثائق مع بيان الشهور والسنوات التي تتناولها . دون أن تصف مضمون محتوياتها . وهي بين قديم وحديث ومخطوط ومطبوع . كما أنه توجد وثائق كثيرة لم تُنظم ولم توضع لها الفهارس الأولية بعد ، في مصر أو في الخارج . وتُعدّ هذه الوثائق بالنسبة للباحثين في حكم المجهولة ، ولا يمكن الإفادة بها قبل تقسيمها وترتيبها ترتيباً أولياً على الأقل .

إلا أن التقدم مستمر في هذا الميدان . فلقد وُضعت . ولا تزال توضع . فهارس وصفية لبعض نواح من الوثائق في دور الأرشيف بالغرب . واهتمت الحكومات والهيئات العلمية في الغرب بإرسال بعوث خاصة من العلماء والباحثين إلى الخارج ، لكي تبحث في دور الأرشيف الأجنبية عن الوثائق التي تهتم بلادها . وعندما فُتِح - مثلاً - أرشيف القاتيكان للباحثين . أنشأ كثير من الدول معاهد خاصة في روما . لكي يعمل أعضاؤها في البحث عن الوثائق التي تعنيهم . والقيام بنسخها ، ووضع الفهارس لما يهدهم منها ، في أرشيف القاتيكان . فهكذا فعلت إنجلترا وفرنسا وألمانيا وأسبانيا وبلجيكا والدانمرك . . . فهل ندرك نحن قيمة مثل هذا العمل ، ونجدو حذو الأمم الحديثة ، الكبيرة أو الصغيرة - في سبيل الحرص على جمع الوثائق التاريخية التي تهتم تاريخ بلادنا ، في كل أو بعض أنحاء العالم ؟ وهل يتوفر لنا الرجال والمال والإمكانات والزمن الذي يتحقق فيه مثل هذا الهدف العلمي الجليل ؟ هذا هو الأمل المُرتجى تحقيقه ، إن لم يكن اليوم فقداً .

وكيف يستطيع الباحث المبتدئ أن يشق طريقه في هذا البحر العجاج ؟ لا ريب أن طريق البحث وعمر شاق . ولا بد في سلوكه من الصبر والجلد . ويمكن للباحث أن يرجع إلى فهارس الوثائق التي يظن أنها تحوى شيئاً يعنيه . ومن حسن الحظ أن تكون بعض الوثائق اللارمة له قد حُصرت ونُظمت ووضعت لها الفهارس التي تسهل عليه العمل .

ولكن سنبقى أمامه دائماً مناطق مجهولة لا بد له من الإقدام على كشفها بنفسه . إذ أن البحث عن الوثائق نوع من المغامرة لمحاولة الكشف عن المجهول . وقد تتعارض في بعض الأحيان المصلحة بين الباحث وبين أمين الأرشيف . الذي قد يدعى أنه لا يعرف شيئاً عما يطلبه الباحث . لأنه قد يكون هو نفسه مهتماً بدراسة هذه الوثائق ذاتها ، فيمنعها عنه . وقد تكون مجموعة من الوثائق التي تعنى الباحث في حوزة باحث آخر عاكف على دراستها لفترة من الزمن ، وربما يحتجزها لنفسه حتى ينتهي من بحثه فيها . إلا أنه بشيء من اللباقة والكياسة ، قد يستطيع الباحث أن ينال مساعدة أمين الأرشيف ومساعدة ذلك الباحث الآخر الذي تعنيه هذه الوثائق ذاتها ، ويحصل منهما على ما هو في حاجة إليه ^(١) . والباحث عن الوثائق يشبه المتقرب عن الآثار الذي قد يظل زمناً طويلاً ينتقّب في مناطق مختلفة ، حتى يعثر في النهاية على ما يرضيه ويرضى العلم .

ولنأخذ بعض الأمثلة العملية عن جمع الوثائق والأصول التاريخية

فالباحث في دار المحفوظات المصرية عن تاريخ النظام الإداري في مصر في أثناء العهد العثماني من سنة ١٥١٧ إلى سنة ١٧٩٨ . سيجد مادة قد وُضعت عنها بعض السجلات الأولية ، فيستعين بها في فحص بعض « دفاتر كشيده مصر ^(٢) » وسيجد أنها تحتوى مثلاً على صور الفرمانات السلطانية الصادرة إلى باشوات القاهرة لحكم هذه البلاد . ويفحص أيضاً بعض دفاتر التمدد الخاصة بالفرمانات والأوامر الباشوية الصادرة من الباشا التركي في القاهرة إلى حكام

Crump : op cit. p. 89.

(١)

(٢) أى دفاتر قيد ديوان مصر . ويتصل هذا بعض ما قمت به من بحث حيلم كبت بالاشتراك

مع محمد محمد توفيق فصلا عن « تاريخ مصر في العهد العثماني (١٥١٧ - ١٧٩٨) » في سنة ١٩٤٢ ، والمشار إليه آنفاً وفي قائمة المراجع .

الأقاليم . ويدرس دفاتر الميزانية التي تبين وجوه الإيرادات من الضرائب المختلفة وأوجه صرفها ، في مراتب الموظفين والعسكر ، وفي أعمال الري . وفي إعانة الذراري والمستحقين ، وفي تموين الحرمين وإمدادهما بالمؤن والهدايا . ويمكن لهذا الباحث أن يدرس دفاتر التزامات الأراضي والجمارك بالنسبة للمنتزعين . في نظير ما يؤدونه عليها من الأموال إلى حكومة القاهرة المحلية ، وهكذا .

وسيجد الباحث في هذه الدفاتر والأوراق كثيراً من معلومات الطريقة عما يبحث عنه . وسيدرك مثلاً اختصاصات كل من الباشا العثماني وأعوانه من الموظفين ، واختصاصات هيئة المماليك المصريين ، واختصاصات الحامية العثمانية والأوجاقات السبعة^(١) . وسيفهم مدى التداخل في اختصاصات هذه العناصر ، وتشابكها ، واشتراكها في حكم العاصمة ، وفي إدارة الأقاليم . وفي توطيد الأمن ، وفي العناية بالزراعة والتجارة ، وفي جباية الأموال ، وفي اشتراكها في حروب السلطان العثماني في أوروبا . وسيدرك الباحث مدى ذلك التوازن العجيب الذي أوجده العثمانيون في مصر ، وفي غيرها من الولايات العثمانية ، للحيلولة دون استقلال عنصر واحد فيها بحكم البلاد . لضمان بقائها تحت الحكم العثماني .

والباحث في دار المحفوظات المصرية كذلك عن تاريخ محمد علي ، قائد الجند الألباني بعد رحيل الحملة الفرنسية عن مصر ، وقبيل توليه حكم البلاد بتأييد من رجالات البلاد ومن شعب القاهرة ، يمكنه أن يدرس بعض الدفاتر الخاصة بمرتبات العساكر الألبانيين ابتداء من سنة ١٢١٧ هـ . وسيجد الباحث في هذه الدفاتر اسم « محمد علي أغا سرجشمهء عساكر أرؤود^(٢) » . وسيجمع بعض المعلومات عن مرتبته وعن تكاليف عساكره . ثم يفحص ما يخص محمد علي أغا في « دفاتر كشيدهء مصر » ، كما يبحث في بعض الأوراق التركية التي لم يتم وضع سجلات لها ، وهي عبارة عن بعض أوامر باشوية ، أو تذاكر ديوانية خاصة بمرتبات الجنود ، وبذلك يستخرج بعض المادة العلمية التي توضح نواحي من تاريخ محمد علي في هذه الفترة من التاريخ .

(١) أرجاق في التركية بمعنى الموقد واستعملت معى فرقة العسكر وكانت الحامية العثمانية في مصر مقسمة إلى سبع فرق .

(٢) يعنى قائده الجند الألباني .

والباحث في تاريخ فخر الدين الثاني أمير لبنان - مثلاً - يلزمه السفر إلى لبنان وسورية ، للرجوع إلى الأصول التاريخية الضرورية ، ولقابلة بعض العارفين بتاريخ البلاد وبدور الكتب بها . فيصل إلى بيروت للالتقاء بالدكتور أسد رستم فيجده قد انتقل إلى المصيف . فيتبعه إلى ظهور الشوير ، ويتحدث إليه طويلاً ويفيد بخبرته الدقيقة وعلمه الغزير . ويشرع في التردد على المكتبة الشرقية في كلية القديس يوسف ، ويواظب على البحث والدرس فيها ، فيعثر على الأصول والمراجع الأساسية ، وبعضها نادر الوجود . وعندما يجمع الباحث قدرًا معقولاً من المعلومات اللازمة له ، ينتقل إلى زحلة للاجتماع بالأستاذ عيسى إسكندر المعلوف صاحب الخبرة الوثيقة بهذا الموضوع التاريخي ، وهناك يكسب قدرًا طيباً من الفائدة العلمية . ثم يقصد إلى دمشق . حيث يجتمع بالأستاذين محمد كرد علي^(١) وعبد القادر المغربي^(٢) ، فيتحدث إليهما ، فيستزيد منهما علماً ومعرفة . ثم يلتقي بالأستاذ محمد حسني الكسم^(٣) ، فتفتح أمامه سبل للبحث جديدة ، ويعثر على مجموعة أساسية من الوثائق الخطية التركية التي لم تُدرس من قبل^(٤) .

ويحرص الباحث كذلك على زيارة بعض المواضع التاريخية مثل دير القمر وبيت الدين ، لمشاهدة شيء من آثار الأمير فخر الدين ، ولكي يعرف شيئاً من طبيعة الجبال والوديان والسهول ، ويتنسم هواءها ، ويختلط ببعض السكان من طوائف وبيئات وأسنان مختلفة ، لكي يفهم شيئاً عن البلاد وأهلها ، مما يجعله أقرب إلى موضوع دراسته .

(١) محمد بن عبد الرزاق كرد علي (١٨٧٦ - ١٩٥٣) اشتغل بالعلم والصحافة والسياسة . وكان رئيساً للمجمع العلمي العربي في دمشق . وولى وزارة المعارف السورية . ومن آثاره المطبوعة « مجلة المقتبس » و « خطط الشام » و « الإسلام والحضارة » .

(٢) عبد القادر المغربي (١٨٩٧ - ١٩٥٦) من علماء اللغة العربية وكان عضواً في عدة مجامع علمية ووكيلاً للمجمع العلمي العربي في دمشق . ومن آثاره المطبوعة « الاشتقاق والتعريب » و « عبرات اللسان » و « الأخلاق والواجبات » و « تفسير جزء تبارك » .

(٣) محمد حسني الكسم (١٨٨٣ - ١٩٥٦) من المشتغلين بالعلم . وكان أميناً للمكتبة الظاهرية ، في دمشق ، ومن هواة الكتب . واشتغل بتجارة المخطوطات بين سوريا ولبنان وتركيا ومصر . وقد ظللنا على صلة المودة بالمراسلة والرؤية في سوريا ومصر حتى سنة وفاته ، إذ كنت في دمشق حينئذ .

(٤) هذه هي مجموعة الوثائق التي سبقت الإشارة إليها في ص ٢٧ حاشية ١ . والكلام في هذا الصدد خاص بما قمت به حيناً كنت أعد رسالة بعنوان « فخر الدين بن معن » لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة (القاهرة) في صيف ١٩٣٣ تحت إشراف الأستاذ محمد شفيق غربال .

وكذلك يحرص الباحث على دراسة عدد من خرائط الشام بالمعنى الواسع - أى من حدود الأناضول إلى حدود مصر - سواء أكانت خرائط طبيعية أم اقتصادية أم سياسية ، حديثة أم قديمة . ثم يرسم لنفسه خريطة تفصيلية كبيرة الحجم والمقياس ، حتى يزداد معرفة بالمواضع المختلفة ، ولكي تكون له هادياً ودليلاً في أثناء تنقله ، ولكي يلم بمواقع البلاد التي لا تُتاح له فرصة زيارتها .

ويعرف الباحث وهو في لبنان أن الأب بولس قرألى (قره على) اللباني يدرس في إيطاليا موضوع الأمير فخر الدين المعنى ، فيكتب إليه سائلاً إياه أن يمنحه شيئاً مما لديه من الوثائق أو المعلومات عن هذا الموضوع ، فيتكرم الرجل بأن يرسل إليه حوالي ١٥٠ صفحة من صور الوثائق الإيطالية ، المستخرجة من أرشيف فلورنسا التاريخي عن هذا الموضوع ، فيعكف على دراستها ، ويفيد بها أعظم الفائدة .

ثم يتجه الباحث إلى السفر إلى إيطاليا سفرة تمهيدية ، للاستزادة من دراسة اللغة الإيطالية . ولكي يأخذ فكرة عامة عن حضارتها العريقة ، إعداداً للمستقبل ويذرع إيطاليا طولاً وعرضاً ، ويجتذبه إليها ما يشهده فيها من شتى الفنون والعلوم التي سادت في العصور القديمة ، أو في العصور الوسطى ، أو في عصر النهضة ، أو في العصور الحديثة .

وتُتاح الفرصة للباحث لكي يسافر مرة أخرى بعد فترة قصيرة إلى إيطاليا ، لتابعة دراسته التاريخية . وهناك يعكف على دراسة الأمير فخر الدين المعنى من جديد ، لوجود وثائق وأصول تاريخية كثيرة عنه لم تُدرس من قبل ، فضلاً عن نواح تاريخية أخرى متصلة به ، مثل تاريخ المصادمات البحرية بين الأسطول العثماني وبين الأسطول التسكاني في القرن السابع عشر . ويقصد إلى أرشيف فلورنسا التاريخي ، ويجد بعض ما يفيد في الفهارس المطبوعة والمخطوطة ، التي يُطلعها عليها المختصون في ذلك الأرشيف ، ويستدل بها في فحص بعض المجلدات الخاصة بهذا الموضوع .

ولكنه لا يكتفي بما استخلصه من الفهارس المشار إليها ، فيدرس عشرات من المجلدات في سنوات محددة وفي نواح مختلفة . فيفحص مثلاً المجلدات التي تحتوي على مراسلات ممثلي فلورنسا في القسطنطينية ، ومذكرات التجار

الفلورنسيين في أراضي الدولة العثمانية ، وتقارير رجال سان استيفانو الواردة إلى حكومة فلورنسا . وكذلك يدرس المجلدات التي تضم صور المراسلات الصادرة من حكومة فلورنسا إلى ممثليها في الشرق الأدنى ، وإلى التجار الفلورنسيين ، وإلى رؤساء نظام سان استيفانو^(١) ، ويدرس الباحث كذلك عشرات من المجلدات الخاصة بالمراسلات الواردة من صقلية والسدقية وجوا مثلاً إلى حكومة فلورنسا ، ثم المجلدات التي تحوى صور المراسلات الصادرة من حكومة فلورنسا إلى هذه الحكومات . وينتج عن هذا البحث جمع مادة أصلية فريدة لم يسبق دراستها أو نشرها ، بعضها يؤيد الوثائق السابقة عليها ، وبعضها الآخر يزيدها إيضاحاً وبعضها يصححها . أو يضيف إليها ما لم يكن معروفاً من قبل^(٢) .

ولا يقتصر الباحث على العمل في أرشيف واحد . بل يقتصيه البحث العلمى أن يتجه إلى العمل في دور أرشيف أخرى في أمكنة متعددة ، وتتناول ما يرغب في دراسته . فينتقل إذ أرشيف بيزا التاريخي ، ولكنه مع الأسف يجد أن جزءاً هاماً من مجلدات الوثائق التي تدخل في نطاق بحثه . قد أكلتها النيران . وإن لم يمنع هذا من عثوره على بعض الوثائق المفيدة .

ويزور الباحث كنيمة سان استيفانو في بيزا ، ويجد بها طائفة من المراسلات النادرة والكتب القديمة ، ويشهد بمحتجتها مجموعة من الأعلام والأسلحة ومصاييح السفن التي كسبها ورسا سان استيفانو . في أثناء اشتباكهم بالسفن العثمانية في البحر الأبيض المتوسط . وبذلك يزداد اقتراباً وفهماً لما يقوم بدراسته . وكذلك يتجه الباحث إلى أرشيف البندقية التاريخي ، الملحق بـ « كنيسة

(١) كان كوزيمو الأول غراندوق، تسكانا (١٥٣٧ - ١٥٧٤) قد أنشأ نظام سان استيفانو البحري للدفاع عن سواحل تسكان وبهاجمة السفن العثمانية في البحر الأبيض المتوسط .

(٢) هذا هو ما سمع به في خريف ١٩٣٦ من نطاق دراسي لإعداد رسالة بعنوان « فخر الدين الثاني أمير لبنان وعلاقاته بالغرب ، مع وثائق لم تنشر » لنيل الدكتوراه من كلية الآداب وأغلمسة بجامعة روما تحت إشراف الأستاذين كارلو ألونسو فليو وإتورى روسي .

وكان إتورى روسي (١٨٩٤ - ١٩٥٥) (Ettore Rossi) عالماً متضلماً في التركية والعربية وأصبح مديراً لمعهد الشرق في روما ، وصار أستاذاً للتركية في جامعة روما . ومن أشهر مطبوعة « حصار وفتح رودس بحسب المصادر التركية » و « التاريخ البحري لقرصان القديس يوحنا وأورشليم ورودس ومالطة » و « سيطرة الإسبان وفرسان مالطة على طرابلس » و « قائمة المخطوطات التركية في انطاكيكان » . وصرت وثيقة الصلة به منذ أن سرفته في سنة ١٩٣٥ .

الفراى . وهناك يدرس عشرات من المجلدات على النحو المشار إليه ، والتي تحتوى على المراسلات المتبادلة بين حكومة البندقية وبعض الحكومات الإيطالية ، وبالعكس ، والمراسلات المتبادلة بين حكومة البندقية ومثيلها وتجارها فى الشرق الأدنى وبالعكس ، فى نطاق البحث ذاته ، وبذلك يكشف عن مادة تاريخية أصلية لم يسبق نشرها أو درسها من قبل .

ويتجه الباحث إلى الدرس فى أماكن أخرى خارج إيطاليا . فيتجه - مثلاً - إلى أرشييف فينا التاريخى . وقمل سفره إليه . يكتب إلى مدير الأرشيف فى فينا سسهماً منه عما يعنيه . فيرسل إليه المعلومات التى يعرفها قائلاً إن المادة الموجودة قليلة وعديمة الأهمية ، مع ذكر أرقام المجلدات التى تحوى هذه المادة القليلة . ولكن ليس معنى ذلك أن تكون معلومات مدير الأرشيف صحيحة . ويرى الباحث أن علاقات السلم والحرب كانت قوية دائماً بين الدولة الصنانية وإمبراطورية النمسا . بحكم الحوار وبحكم المصالح المشتركة أو المتعارضة بينهما ، وأنه من المرجح وصول أحبار الشرق الأدنى وبحاره . إلى حكومة النمسا عن طريق ممثلها فى القسطنطينية . وبذلك لا يقتنع برد مدير الأرشيف . ويسافر إلى فينا . ويجد أن الفهارس المنطوعة والمخطوطة غير ذات جدوى . ولكن لا يمنعه ذلك من البحث . فيعمل بعض الزمن . ويدرس مراسلات ممثل النمسا فى القسطنطينية ، كما يدرس لمراسلات المتبادلة بين حكومة النمسا والحكومات الإيطالية فى فترة معينة . وينتهى به الأمر إلى أن يكشف عن طائفة ممتعة من الوثائق الألمانية والإيطالية التى تدخل فى نطاق بحثه ، فيحملها إلى مدير الأرشيف راجياً إياه أن يدرج أرقام مجلداتها ومضمونها فى فهرسه المخطوطة على الأقل . فيفعل .

ويُطبّق الباحث نفس الطريقة فى باريس . فيزور أرشييف وزارة الخارجية فى الكيه دورسيه ، ولكنه لا يجد سوى قدر قليل مما يعنيه . فيتجه إلى المكتبة الوطنية فى باريس ، حيث يدرس المراسلات المتبادلة بين ممثل فرنسا فى القسطنطينية والحكومة الفرنسية ، وبين ممثل فرنسا فى فلورنسا والحكومة الفرنسية ، وبذلك يجد بعض الوثائق التى تحتوى على معلومات فريدة ، لم يسبق حصوله على مثلها من قبل . ولم يسبق نشرها . وليس فى فهرس المكتبة ما يدل على وجودها . ومثال

ذلك ما وجده من المعلومات عما أثاره هرب الأمير فخر الدين إلى تسكانا ، بمعاونة نائب القنصل الفرنسي في صيدا في سنة ١٦١٣ . وقد أثار ذلك غضب السلطان العثماني ، وأوجد أزمة سياسية هدّدت بإتفاص الامتيازات الأجنبية بالنسبة للدول الأوروبية جميعاً ، بل وربما خامرت السلطان فكرة إعلان الحرب على فرنسا^(١) .

ويتبع الباحث المنهج نفسه في لندن . وهناك يتردد على دار المحفوظات التاريخية في اتشانسيرى لين ، ويدرس المراسلات المتبادلة بين ممثلي إنجلترا في القسطنطينية وحكومة إنجلترا ، وكذلك المراسلات المتبادلة بين ممثلي إنجلترا في فلورنسا والحكومة الإنجليزية فيجد مادة تاريخية نافعة لم يسبق نشرها، وليس هناك ما يدل عليها في الفهارس الموجودة. ومن ذلك ما يؤيد أخبار تلك الأزمة التي خلقها فرار الأمير فخر الدين ، وما ترتب عليها من غضب السلطان العثماني والصدر الأعظم على الدول الأوروبية^(٢) .

وهذه كلها أمثلة عملية تُعطي فكرة عامة عن طريقة البحث عن الوثائق والأصول التي تظل مجهولة للعلم حتى يكشف عنها ، وإلى آخر لحظة يظل الباحث يتوقع كشف أصول جديدة تزيد أو توضح أو تغير ما لديه من الحقائق ، مما قد يضطره إلى تعديل معلوماته إذا لم يكن قد طبع ببحثه بعد ، أو إلى تغييرها إذا ما أعاد طبع بحثه^(٣) .

وينبغي على الباحث أن يرجع دائماً إلى التصميم العام الذي رسمه لموضوع دراسته ، لكي يعدل ما يرى تعديله بحسب الطريق العملي الذي يسلكه ، وعليه أن يدوّن النقط الثابتة عنه، والمسائل المستجدة التي يداخله الشك في شأنها، والنقط المجهولة لديه ، وكل ما يتوقع أن يكشف عنه . ويقرأ الباحث بالتدريج المراجع التي تخصه ، وستلقى المعلومات الواردة بها ، والمعلومات التي تتضمنها الوثائق والأصول

(١) Bibliothèque Nationale de Paris, ms. français, Constantinople 16147, f. 354-

357, 384-384 b; 422 a : De Harlay à Puisieux, Pera 3 et 28 Avril et 7 juillet 1614.

(٢) Public Record Office, London : S.P. Turkey 7 (1612-1620) : 69 a : Pindar

to Carlton, Pera 9-19 December 1613. 76 : do to do, Pera 3 February 1614.

(٣) قد لا يستطيع الباحث الرجوع إلى وثائق أرشيف القسطنطينية في هذا الصدد لعدم الفراغ من ترتيبها وتنظيمها مما لا يتيح له فرصة دراستها فعلياً الانتظار حتى يتم ذلك أو فليكل عمله باحث آخر من بعد.

التاريخية ، الضوء بعضها على بعض . وعلى الباحث أن يأخذ من المراجع المعلومات التي تعنيه بلغتها الأصلية أحياناً ، وبالترجمة ، وبالتلخيص ، بحسب الأهمية التي يراها من موضع لآخر ، مع بيان أرقام المجلدات في دور الكتب ، والصفحات التي ينقل أو يترجم أو يقتبس عنها ، في هوامش أوراقه الجانبية ، حتى يُمكن الرجوع إليها في مظانها إذا اقتضى الأمر ذلك ، ولكي تكون من الأدلة على إثبات صحة ما كشف عنه من الحقائق .

وعلى الباحث أن ينقل بنفسه جزءاً من الوثائق التي يجدها في دور الأرشيف ، حتى يكسب شيئاً من التجربة الذاتية ، يتعامله مع هذه الأوراق المكلمة ، يفهم أشياء من خصائصها ، من حيث نوع الورق ، والخبر ، وأقلام الكتابة ، والأختام الممهورة بها الأوراق ، إن وجدت ، وسيزيده هذا قريباً من العصر أو من الموضوع الذي يتناوله . ويمكنه في الوقت نفسه أن يُشرك معه بعض الإخصائيين في نسخ جزء من الوثائق التي تعنيه ، كما يصور جزءاً منها بطريقة (التوتوستات) أو (الميكروفيلم) بحسب الضرورة ، واختصاراً للوقت . ومن المستحسن أن ينقل الباحث شيئاً من المعلومات التي لا تتصل مباشرة بموضوع بحثه ، ولكنها تفيد في إيضاح كثير من المسائل التي تدور حول موضوعه .

ومن الضروري أن يفهم الباحث محتويات ما يتقله ، من الوثائق والأصول والمراجع ، ويستوعبها أولاً بأول حتى لا تتراكم الأوراق أمامه ، ولذلك ينبغي عليه أن يُلخص مضمونها في هوامش الصفحات ، لكي تكون واضحة سهلة التناول . ومن المذكرات التي على الباحث أن يدونها أولاً بأول ، تعليق أو نقد أو ملاحظة على وثيقة أو مصدر ، أو فكرة عن مسألة تفصيلية معينة ، أو إشارة إلى أصل تاريخي أو مرجع للرجوع إليهما في المستقبل ° . وكثيراً ما تعرض للباحث في هذا الدور من العمل أو في الأدوار التالية ، آراء ومسائل متشابكة أو غامضة ، فعليه أن يسارع بتدوين ملاحظاته عليها حتى لا ينساها .

ويتصل بالوثائق - في المعنى العام - الرسوم والصور ، التي هي ذات أهمية خاصة من الناحية التاريخية . والوصف الكتابي مفيد - بدون شك - في بيان خلُق وعادات ناپليون - مثلاً - ، ولكن رسم المصور إياه في أوضاع مختلفة ، أو صنع

المثال تماثيل له ، يعطينا بالألوان والظلال الواضحة في الصورة ، ويمنحنا بالتجسيم الواضح في المرمر أو البرونز ، فكرة أدق تضاف إلى ما يمكن أن نعرفه عنه من أوصافه وخلقه وطباعه ، بطريق الكتابة . فالرسوم ، والصور ، والحفر البارز أو الغائر ، والتماثيل ، تساعدنا في فهم التاريخ ، وتسجل لنا أحياناً أشكالاً ومناظر وأزياء تغيّرت معالمها أو زالت من الوجود ، أو ربما لا تنتجج الكتابة في التعبير عنها كما ينبغي . ويضاف إلى ذلك الصور الفوتوغرافية التي شاع استخدامها في الزمن الحديث ، وهي تسجل مشاهد عديدة عن البشر وعن آثار الحضارة والعمران ، أو الآثار التي تُحدثها ثورات الطبيعة ، أو ويلات الحروب ، فينبغي على الباحث أن يُعنى بمحصر ودراسة ما يخصه من هذه الأدوات المهمة النافعة في بحث التاريخ والكتابة عنه ، إن وجدت .

ويتصل بالوثائق أيضاً - في المعنى العام - آثار الإنسان وبقاياها - فن ذلك بقايا جسم الإنسان نفسه ، وملابسه ، ومساكنه ، ومبانيه ، وأسلحته ، وأدواته التي كان يستخدمها في أثناء حياته ، ونقوشه على الأحجار . . . مما يدخل في نطاق علم الآثار . فينبغي على الباحث في التاريخ أن يشاهد ويدرس بنفسه آثار العصر الذي يدرس ناحية من تاريخه ، ويزور المباني القائمة التي كان رجال ذلك العصر يعيشون فيها ، والحداثق التي كانوا يروّحون عن خواطريهم في أرجائها ، إن وجدت . وعليه أن يتعرف على طريقة معيشتهم وأزيائهم ، ومخلفاتهم الشخصية ، وأن يتلمس ما كانوا يؤثرونه من أدوات الموسيقى وألحانها ، إن كانوا قد فعلوا ذلك . ويمكن أن يرجع الباحث إلى بعض المتاحف العامة أو الخاصة ، أو المباني أو الأماكن التي كان رجال الماضي يشغلونها أو يشغلون أجزاء منها ، وتحولت الآن إلى أماكن عامة .

ولا ريب أنه من الضروري للمؤرخ أن يعيش فترة أو فترات من الزمن خلال هذه الذكريات التي تأدّت من الماضي إلى الحاضر ، وأن تشيع في نفسه هذه الرؤى وتلك الخلجات التي أحاطت برجال العصر الذي يدرسه ، إذ يُصبح بذلك كله أقدر على استخلاص الحقائق التي تعنيه ، وأقرب إلى فهم روح الموضوع الذي يتناوله ويرغب في الكتابة عنه .